مقدمة

نهدف من وراء ترجمة هذا النص ودرسه، وهو أقدم نص أدبى كُتِبَ فى اللغة القشتالية، وبالتالى فى الأدب الإسبانى، إلى أكثر من غرض. الإسهام بطريقة إيجابية فى إلقاء بعض الضوء على ما بين الأدب العربى والآداب الأوربية من صلات. ودعوةٌ إلى دراسة الأدب الأندلسى فى ضوء منهجية جديدة متطورة، تدرسه داخل نطاق الآداب التى عايشها على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية، فتأثّر بها، وأثرّ فيها. ومحاولة لإبداء رأى فيما أتصورّه خطأ وقعنا فيه، وتسير عليه مدرسة الاستشراق الإسبانية، امتدادا لتقاليد وليدة أيام متخلفة، أعشاها التعصب، وأفسدت أبحاثها الفكرة المسبقة، ولم يعتصم بالحق من علمائها غير القليل.

خطأ الجانب العربى مصدره فكرة تفرض نفسها سلفا على الدارسين بعامة، وفى حقل الأندلسيات على نحو خاص، وَهْمُ أن المسلمين قدموا شبه الجزيرة الإيبيرية بشرا ولغة، فنوناً وعادات، فلم يجدوا أى شىء فوقها، ثم استقروا بمعزل عن غيرهم، وأبدعوا حضارة أزهرت لزمن طويل، لم تأخذ من الأرض التى ترعرعت عليها شيئاً، وأن هؤلاء المسلمين كانوا كل عناصر الحياة، عبر الأندلس كله، وعلى امتداد قرون تسعة، ثم خرجوا بعدها، أو أخرجوا، دون أن يتركوا وراءهم أثراً. وكان الحق شيئاً آخر، فمنذ بداية القرن العاشر أخذت دولة مسيحية، أو دول عديدة، تتكون فى شمال شبه الجزيرة على مهل، وتأخذ أشكالا إدارية وسياسية وحضارية مغايرة للدولة الإسلامية القوية فى الجنوب، وبدأت هذه الدويلات تنمو وتتسع، ويصبح لها أدبها وفنها وحضارتها. وما من شك فى أن المسلمين فى الجنوب كانوا أكثر تقدماً، وأرق

تحضراً، وأبدع فى مجال الفن، لكن ما من شك أيضاً فى أن التبادل الحضارى بين الجانبين لم يتوقف لحظة واحدة. وأن الأخذ والعطاء كان مستمراً حتى فى أشد ظروف الحرب ضراوة، يعطى المسلمون كثيراً، ويأخذون قليلا، ولكنهم كانو يأخذون على أى حال. وكانت الدولة المسيحية فى الشمال نافذة يطل منها المسلمون فى الجنوب على ألوان أخرى من الحضارة، ربما كانت أدنى مما عندهم، ولكنها تمثل حضارة متمايزة، وعادات مغايرة، وثقافة تنتمى إلى عالم آخر.

إهمال دراسة الجانب المسيحى، وبخاصة فى الجوانب الأدبية والثقافية والدينية، جعل الدراسات الأندلسية تقليدية. وإذا كنا ندرس الحضارة الأندلسية لذاتها، فنحن ندرسها أيضاً لأنها الرافد الذى عاشت عليه أوربا قبيل نهضتها الأخيرة، وتتبع مساره وما حمل لا يتأتى لنا دقيقاً واضحاً إلا إذا عرفنا **ما الذى كان يحدث فى الجانب المسيحى من الأندلس، ماذا أخذوا عن** مواطنيهم المسلمين وما الذى أعرضوا عنه، ماذا كان عندهم من أشكال أدبية رومانية أو يونانية أو جرمانية، لم يحاول المسلمون أن يفيدوا منها، أو حاولوا وأخفقوا، وما الذى اقتبسوه منهم، أو قلدوهم ونجحوا فى التقليد. والنص الذى بين أيدينا ليس هو النص الأدبى الوحيد الذى يعرض لقضية إسلامية مسيحية مشتركة، وأبطاله ومسرح أحداثه من الجانبين.

وأكثر من ذلك، ثمة نصوص عربية كثيرة ضاعت، أو تعتبر ضائعة حتى الآن، ثم وصلتنا أصولها مترجمة إلى إحدى اللغات الرومانثية التى كانت تشارك اللغة العربية حياتها على امتداد شبه جزيرة إيبيريا، ولعل أشد النصوص إيحاء وطرافة، قصيدة شعرية تبكى سقوط بلنسية فى يد السِّيد، ضاع أصلها العربى، ووصلتنا فى اللغة القشتالية فى صور ثلاث : منثورة فى عامية أهل الأندلس

العربية، ورُسمت فى حروف لاتينية، وهى ظاهرة فريدة قلما نجد لها مثيلا فى العصر الوسيط، ثم ترجمة إسبانية لها كُتبت فى نثر قشتالى جميل، وأخيراً تُرجمت شعراً، فى قصيدة شعبية جميلة، وأرجح أنها كانت تُغَنَّى، وشاعت على أفواه الناس، واحتفظت بها الذواكر لأمد طويل، وظلّت تنتقل رواية على امتداد خمسة قرون أو تزيد، حتى جاءت المطبعة إلى الأندلس فى النصف الثانى من القرن الخامس عشرَ، مع أيام الإسلام الأخيرة، فطبعت مع مجموعة من القصائد الشعبية، وكلها تدور حول السِّيد[1]. إن الأخذ والعطاء بين الجانبين كان على أى حال أوسع وأعظم مما نتصور بكثير.

كان الإسبان ومازالوا، أكثر منا معرفة بحقائق الأشياء فى الجانبين الإسلامى والمسيحى، وإجادة اللغة العربية ضرورة تقتضيها طبيعة المنهج، لمن يريد أن يتصدى للدراسات الأندلسية عندهم فى أى جانب منها، وإلى حدٍّ ما لمن يريد أن يتخصص فى دراسة تاريخ إسبانيا الحديث، أو بعض قطاعات الأدب المعاصر أيضاً. ولتحقيق هذا الغرض، أصبحت اللغة العربية، إلى جانب اللغة اليونانية القديمة، واحدة من اللغتين اللتين يجب على كل طالب فى الدراسة العامة لكليات الآداب، ومدتها عامان، أن يُلم بواحدة منهما على الخيار. ثم تُدرس بعد ذلك تخصصاً، فى أقسام مستقلة، تنهض عليها وتعنى بها، أدبا وتاريخا ولغة وفلسفة وتشريعاً، وتخدم بقية الدراسات الأخرى، المرتبطة بفهم الإسلام وحضارته. وتوجد هذه الأقسام فى عدد من الجامعات الكبرى، أوضحها أقسام اللغة العربية فى كليات الآداب بجامعات مدريد وغرناطة وبرشلونة وأليكانتى. وإلى جانب هذه الدراسات الجامعية أنشأت

---

(١) انظر: د. الطاهر احمد مكى، دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة، الطبعة الثانية، دار المعارف ١٩٨٣، الفصل: «مرثية بلنسية ضائعة».

الحكومة الإسبانية عام ١٩٣١ مدرسة الدرسات العربية Escuela de Estudios Arabs فى كل من مدريد وغرناطة، للأبحاث المتخصصة العالية، وعنها كانت تصدر **مجلة الأندلس Al-Andalus**، وتتمتع بشهرة عالية مرموقة، ومكانة دولية ممتازة، وظلت تواصل صدورها بانتظام مرتين فى العالم، إلى أن توقفت عام ١٩٨٠، وحلت مكانها أخرى تحمل اسم **القنطرة**.

ومثل هذا الفهم الذكى لم يغب عن **مصر** العظيمة أيضاً، فأنشأت المعهد المصرى فى مدريد عام ١٩٥٠، تحاول معه وبه أن تجعل من الدراسات الأندلسية عملا علمياً له منهج، ويجرى وفق قواعد وأصول، غير أن المعهد المصرى لم يستطع أن يؤدى شيئاً من الرسالة المرجوة منه، لأسباب لا سبيل إلى بسطها فى هذا المكان.

لكى نؤرخ للأندلس، أو ندرس أدبه، أو نتتبع روافد حضارته فيا وراء جبال البرانس، لابد من معرفة اللغات التى عايشت العربية هناك زمناً، والبشر الذين ناكبوا المسلمين، وأن نضع تحت تصرف الباحث المتخصص الكتب والمجلات، مما ينشر فى العالم الذى يتحدث الإسبانية، وهو أوسع من إسبانيا وأضخم، لأنه يشمل قارة كاملة، ومصر الرائدة لها دور كبير ينتظرها فى هذا المجال.

والخطأ الثانى، ويشترك فيه الإسبان والعرب على السواء، هو القول بأن الصراع الذى دار على بطحاء الأندلس كان بين العرب والإسبان. وهو زعم بعيد عن الحقيقة، فلم تكن ثمة قومية عربية، ولم يكن المرء ينتمى إلى العرب كجنس، ولعل هناك من كان ينتمى إلى قبيلة، وليس إلى قوم لهم خصائص وصفات. ولم تكن القومية الإسبانية قد وجدت، وكلمة إسبانيا بمعنى دولة لم تعرف إلا فى زمن متأخر جداً ربما فى أواخر القرن الخامس عشر، أما قبله

فكانت تعنى امتدادا جغرافيا، مكانا محدداً من الأرض، وملحمة السِّيد على امتدادها، وما فيها من حروب وصراع بين المسلمين والمسيحين، لاتأتى على كلمة إسبانيا إلا ثلاث مرات، وأكاد أشك أنها من إضافات النساخ.

ولم يكن سكان الأندلس عربا بالدم، وإنما كانوا خليطاً عجيباً لا يمثل العرب فى داخله إلا اليسير، أما الكثرة الغالبة فكانت تنتمى إلى أقوام آخرين، من قوط ولاتين وفينيقيين، أو من بربر وأفارقة وصقالبة، ولم يكن الأندلس مستعمرة تابعة للخليفة فى دمشق إلا على امتداد خمسة وأربعين عاما فحسب، وفيما بعدها كان دولة مستقلة، وتحكم جانباً من شمال أفريقية أحيانا، وليس يهم كثيراً أن تكون الأسرة الحاكمة أجنبية جاءت من خارج شبه الجزيرة، فمثل هذا العمل كان مقبولا وشائعاً فى العصور الوسطى وما بعدها، وأغلب الأسرات الملكية التى كانت تحكم أوربا قبيل الحرب العالمية الأولى كانت تنتمى، فى الأصل، إلى شعوب غير التى يقومون عليها ملوكا. ولم يكن **لذريق** ملك إسبانيا قبل الفتح الإسلامى بأكثر إسبانية من **عبد الرحمن الداخل**، أو **عبد الرحمن الناصر**، أو **المنصور بن أبى عامر**، نعم كانت اللغة العربية تزاحم الرومانثية فى ألسن الناس، واللاتينية فى الكتابة والتسجيل، وتتقدم دونها فى مجالات الثقافة والأدب والتعبير الجميل، وكان الإسلام دين الدولة والغالبية، لكننا سنرى بعد قليل أن المسيحية أيضاً بدأت تتبلور فى شكل دولة أو دويلات، وأن الصراع على امتداد القرون التسعة، وحتى أزيد قليلا، لم يكن بين العرب والإسبان، وإنما كان بين الأندلسيين المسلمين والأندلسيين المسيحيين، ولقد كان الأندلسيون المسيحيون يعرفون أنهم يقاتلون شركاء لهم فى الوطن يختلفون معهم فى الدين، وعندما ما تعرض الأندلس لهجوم المرابطين ثم الموحدين من بعد، رسم المسيحيون سياستهم لإجلاء هؤلاء القادمين، لينفردوا وحدهم بالمسلمين الأندلسيين ما فى ذلك

شك، فإذا لم يكن إلى ما يريدون سبيل فلا بأس من دعم المسلمين الأندلسيين، ليثبتوا فى وجه المسلمين القادمين من وراء المضيق. وعندما كانت تخف قبضة رجال الدين المسيحيين، أو يظهر على المسرح السياسى ملك مسيحى مهاب، تبدو هذه الفكرة أشد ما تكون وضوحاً، لقد كان **ألفونسو السادس** يردد فى رسائله ومكاتباته أنه : «ملك الملتين، وسيد الديانتين»، ويطمح أن يكون كذلك.

كان المسلمون والمسيحيون فى الأندلس يختلفون ظاهراً، أما فى العمق فبينهما الكثير المشترك. كلاهما كان فاسداً وغادراً وقاسياً، وإذا كان المسلمون لا يكادون يهتمون بتطبيق نصوص الشريعة فى الحياة العملية، ويفضلون استشارة المنجم على الفقيه، فقد كان بين المسيحيين من لا تعنيه الكنيسة، ويدير ظهره للقسيس، وإذا كان بين المسلمين من لا يجد غضاضة فى أن يقاتل تحت راية قائد مسيحى، مأجوراً أو هاويا، فقد كان هناك من المسيحين أيضاً من لا يجد حرجا فى أن يقاتل تحت راية مسلم، وضد شريكه فى الدين.

أما تصوير العرب بأنهم غزاة، وأنهم احتلوا إسبانيا، وأقاموا فيها محتلين، حتى جمع الإسبان شملهم وألقوا بهم فى البحر، فشىء صنعه رجال الدين الكاثوليك فيما بعد انتصار المسيحيين على المسلمين، عندما نشأت القوميات فى أوربا، ولم يعد الدين يلعب الدور الأول، وغير كاف وحده لإثارة العامة، فاقتضى سد المنافذ أمام الإسلام بوصفه ديناً، أن يصور للجماهير على أنه دين العرب المستعمرين. وأرضت الفكرة، وصيغت فى مهارة فائقة، الغرور العربى فاطمأن إليها، وانساقت البقية وراء المغرورين جهلا. والحق أن من يتتبع تاريخ الأندلس أيام المسلمين، فسيجد الصراع بين الطوائف، عنصرية أو طبقية أو دينية، لم يتوقف لحظة واحدة، لا عند المسلمين ولا عند المسيحيين.

وفى إسبانيا المسيحية ازداد الصراع حدة وعنفاً، فلم يكد يتوفى **فيليب الثانى**، أكبر ملوك إسبانيا بعد إجلاء المسلمين، حتى سقطت فى حروب أهلية متصلة، وكانت بين الإسبان أنفسهم، وكلهم من الكاثوليك. والحرب الأهلية آخر ما نعرفه من ألوان هذا الصراع، وامتدت طيلة أعوام أربعة، من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩، وخسر فيها الإسبان قرابة مليون من البشر، إلى جانب ما أصاب كل مرافق الحياة من تخريب وتدمير، كانت لونا من صراع العصور الوسطى بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس، غير أنها جرت هذه المرة تحت شعار الجمهوريين والملكيين، بين دعاة سلطان الكنيسة والمناهضين له.

لقد كان الصراع فى الأندلس بين المسلمين والمسيحيين، وكلا الجانبين ينتميان إلى وطن واحد، وإن فرقت بينهما العقيدة، وانتهى الصراع لصالح الطرف الأخير، وكان سقوط الإسلام الأندلسى، إلى جانب صقلية، الاستثناء الوحيد من القاعدة التى تقرر «حيثما انتشر الإسلام استقر إلى الأبد».

لم يكن القصد من الترجمة التى قمت بها للملحمة، أن أقدم نصاً أدبياً رقيقاً وجميلا ومثيراً، وإنما كانت الغاية أن أضع بين يدى القارىء العربى الذى لا يعرف الإسبانية، أو يعرفها معرفة متواضعة، أو يجيدها والنص لا يتوافر له، وثيقة ذات أهمية قصوى، تعين الباحث على تفسير ظواهر كثيرة، وتثير فى أعماق الدارس لتاريخ الأندلس وأدبه أكثر من سؤال. ومن ثم عمدت إلى الترجمة المباشرة من اللغة القشتالية، وفيها كتبت الملحمة أصلا، فلم تكن اللغة الإسبانية قد وجدت بعد، ولم أستخدم النصوص الإسبانية الحديثة التى عمدت إلى النص القشتالى القديم، فكتبته فى اللغة السائدة الآن شعراً أو نثراً، لأن الأدباء المحدثين كانوا يتجاوزون النص القديم، فى مواضع كثيرة، زيادة أو نقصاً، جريا وراء الجملة الجميلة، أو استجابة لدواعى العروض والقافية، والشعر الإسبانى يعرفهما ويقدرهما ويحرص عليهما، أو لاعتبارات سياسية. مثلا

الطبعة التى أصدرتها دار الشباب Editorial Juventud فى برشلونة، وهى من كبرى دور النشر فى إسبانيا، وتتبع الكنيسة الكاثوليكية، فى سلسلة كتاب الجيب، وصدرت الطبعة الأولى منها عام ١٩٦٨، فى طبعة أنيقة ورخيصة، وتضم النص القديم وهو فى اللغة القشتالية، إلى جانب النص الحديث وضعه **ألبرتو منَينت** Alberto Manent فى شعر إسبانى حديث رقيق وعذب، ومهدّ لها بدراسة مركزة ومفيدة **دمسو ألونسو** Damaso Alonso، رئيس المجمع اللغوى الإسبانى، وقدم لها أستاذ آخر للأدب بترجمة مختصرة عن حياة السيد، وتولى فنّان توشيتها بالرسوم. حشد من الأساتذة يجعلها أكثر من غيرها انتشاراً وقبولا، غير أن الكنيسة الكاثوليكية وتجمعها مع الصهيونية العالمية الآن مصالح مادية كثيرة ومعقدة، جعلت الشاعر الحديث، أو عمد هو فهما منه دون طلب مقصود، يحذف من بيت الشعر الذى يتحدث عن صلب المسيح كلمة اليهود، فى أرق قصيدة تتضمنها الملحمة، لأنها صلاة مسيحية خاشعة، كان النص الأصلى يقول:

بعثت أليعازر من قبره   لأنّ هذه كانت إرادتك
وتركت اليهود يأخذونك   إلى ما يسمى بجبل جلجلة
وفى جلجلة وضعوك   على الصليب وتركوك تموت

فحذف كلمة اليهود من البيت الثانى، واستعاض عن الاسم الظاهر بضمير الغائب، وهو ما يجعل الفعل فى معنى المبنى للمجهول، فلا يعرف القارىء على من يعود، لقد أصبحت الأبيات:

وتركتهم يأخذونك إلى جلجلة، وهناك اقتربوا منك.

وحملوك إلى جبل جلجلة، وهناك مت على الصليب[1].

---

(١) القصيدة رقم ١٨.

غير أن النص القشتالى رغم كل الحواشى المفسرة التى ألحقها به العالم الإسبانى **رامون منندث بيدال** Ramon Menéndiz Pidal ، كان يبدو فى بعض اللحظات غامضاً غير مفهوم، حتى على العالم اللغوى الكبير نفسه، ومن ثم كان بين يدى وأنا أترجم، غير النص الشعرى الذى أشرت إليه سابقاً، الترجمة النثرية التى قام بها الأديب المكسيكى الشهير **ألفونسوريس** Alfonso Reyes ، وترجمة نثرية جاءت فى شكل قصة قام بها **أنخل بيبارتا** Angel Villarrta . ورأيت أن أفيد من التراجم الأجنبية التى التقت لغاتها مع اللغة القشتالية فى العصر الوسيط، فكان لدى منها آخر ترجمة فرنسية للملحمة، من عمل **أوجين كولر** Eugéne Kohler وصدرت فى باريس عام ١٩٥٥، ثم الترجمة البرتغالية وقام بها **ألفونسو لويث فيرا** Alfonso lopez Vieira ، وصدرت فى لشبونة عام ١٩٢٩ ، وكلها أعانتنى على الفهم، ولكنها لم تصبح بديلا عن النص الأصلى أبدا.

فيا يتصل بالأسماء الأندلسية المسيحية الواردة فى الملحمة، ولمعظمها صور عربية قديمة، آثرت أن أكتبها فى صورتها القديمة، أما الأسماء التى لم ترد فى المراجع العربية، ولها أكثر من صورة نطق فى الإسبانية، فقد تخيرت أسهلها وأقربها إلى الأذن العربية، وأيًا ما كان الأمر فعند دراستى لأبطال الملحمة، أو فى المعجم الجغرافى للأمكنة وسألحقه بآخر الكتاب، سآتى على الصور المتعددة، فى أشكالها المختلفة. كذلك أبقيت على الألفاظ العربية التى استخدمها الشاعر فى الملحمة ، فى صورتها الأصلية، كلما كان ذلك ممكنا، رغم أنها غير معهودة فى العربية المعاصرة، أو عربية المشرق، لكى يبقى طابع التأثير العربى فى ألفاظ الملحمة ملموساً واضحاً.

وشخصية السيد فى التاريخ تختلف عنها فى الملحمة، على نحو ما سنرى فى الدراسة والنص، ومن الواضح أن الشاعر الجوال – أو الشعراء – الذى قال

الملحمة كان مسيحيا، ولو أنه دون ما شك كان يعرف اللغة العربية، ويعيش بين المسلمين، ومن ثم فهو يلتزم وجهة النظر المسيحية، وحاول أن يصنع من السيد بطلا مسيحيا كاملا، ولم يكن السيد كذلك لا واقعاً ولا تاريخاً. ولكنك لا تجد فى الملحمة كلمة واحدة تنضح حقداً على المسلمين، وهى بهذا أكثر وفاء للواقع، حين تصور ما كان من علاقات بين المسلمين والمسيحيين. ولوضع السِّيد فى مكانه الحق من التاريخ كانت الدراسة التى سبقت النص بجوانبه المختلفة، وإذا كانت مصادرى فى جلها أجنبية، وإمكانيات الطباعة لا تتيح لى أن أرد كل خبر إلى مصدره، فقد ألحقت بآخر الكتاب قائمة بالمصادر التى رجعت إليها. ولكنى أود أن أشير هنا، وعلى نحو خاص، إلى عالمين جليلين : أما أولهما فالعالم الإسبانى **رامون منينديث بيدال** (١٨٦٩ - ١٩٦٩)، ومؤلفاته ودراساته عن السيد، وعن الأندلس فى العصر الوسيط، وعن اللغات الرومانثية وما يتعلق بها، لا تقع تحت حصر، وتتدرج بين الموضوعية الجادة، والانعطاف القومى المعتدل، غير أن الحياد العلمى فى دراساته أوضح من أى اتجاه آخر.

وأما الثانى فهو المستشرق الهولندى **رينهارت دوزى** Reinhart Dozy (١٨٢٠-١٨٨٣)، ووقف حياته وعلمه وقلمه على الأندلس، ودرس أحداثه ورجاله بروح متعاطفة، ولكنها معتدلة وموضوعية، وأفدت كثيراً من دراساته، ويهمنى أن أشير بنوع خاص إلى كتابه : « أبحاث عن تاريخ إسبانيا وأدبها خلال العصر الوسيط Recherches sur L´Histoir et la Littérature de l´Espagne, Pendan le moyen age .

ويقع فى مجلدين، والطبعة التى أفدت منها هى الثالثة، وصدرت فى ليدن - هولندا، عام ١٨٨١.

لقد تُرجمت هذه الملحمة إلى كل لغات العالم الحية، وترجمتها إلى اللغة العربية تفرضها ضرورات أدبية وتاريخية، وتجعل منها واجبا ملحا. ورغم هذا فقدت ترددتُ طويلا أمام ترجمة هذا النص، وأمام الدراسة التى سبقته، لأن القاهرة فقيرة للغاية فى المصادر والمراجع التى باللغة الإسبانية، لكن التراجع أمام الصعاب يعود بنا القهقرى، أو يجمد حركتنا، فلا نمضى خطوة إلى الأمام، ومن ثم آثرت أن تخرج على النحو الذى يجدها القارىء عليه، ومع الزمن أمضى بها أنا، أو غيرى، إلى ما هو أكمل وأوفى. وحسبى أننى ما أبقيت من جهدى شيئاً.

والله الموفق للصواب.

٣ شارع مصدق - الدقى
الجيزة - مصر
١٤ من رجب ١٣٩٠ هـ
١٥ من سبتمبر ١٩٧٠ م

الطاهر أحمد مكى

ت ٣٦١٣٣٠٦
٣٤٧٩٣٩٢

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

حققت حملة المسلمين فى شبه الجزيرة الإيبيرية فى مطلع القرن الثامن الميلادى انتصارات حربية ذات طبيعة فذة، وفتح انهيار المملكة القوطية بعد ضربات سريعة، حاسمة ومتلاحقة، ورغم جيوشها الكثيرة العدد، أمام القلة المهاجمة من المسلمين، الطريق لمزيد من الأقاصيص والأساطير، تتخذ من الحقائق مادتها، ولكنها تضيف إليها من خيالها الشعبى الشىء الكثير، ومع امتداد الزمن، والاعتماد على الذاكرة، تنوسيت حقائق التاريخ أو جلها، ومع تناسيها كان الخلق الشعبى يتولى نسج الوقائع، ورسم الشخصيات، وبناء الحوار، وهو فى ذلك يستجيب لرغائب الناس أكثر مما يحرص على صحة الأحداث، فقد كانت القصة تنشد تسلية، أو استثارة، ومن ثم كان القاص أو المنشد أو الشاعر، يرعى هذا الجانب فى مستمعيه، شيوخا أو شبابا، مسلمين أو مسيحين، محافظين أو متحررين، رجالا أو نساء عربا أو بربرا أو لاتين ، وما يثير ويحظى بإعجاب أى واحد من هؤلاء غير ما يعجب الآخرين.

كانت أقاصيص الفتح الأولى تدور حول ما لقى المسلمون من غنائم، وما حازوا من تحف وثروات، **فطارق بن زياد عندما فتح مدينة طليطلة** وجد فيها جواهر ثمينة، منها مائة وسبعون تاجا من الدر والياقوت والأحجار النفيسة، وإيوانا ممتلئاً بأوانى الذهب والفضة، وبلغ من سعة الإيوان وعرضه أن الخيل تستطيع أن تجرى فيه بفرسانها، وغير ذلك كثير، أصابه ملوك الأندلس القدامى غنيمة من بيت المقدس، حين حضروا فتحها مع **بختنصر** ومثله مما كانت الجن تأتى به لنبى الله **سليمان**. وحاولت كذلك أن تملأ عن طريق الخيال الفجوات التاريخية التى صاحبت عملية الفتح وانتهت بانتصار

المسلمين. كان جيش المسلمين فى البدء بقيادة **طارق** لا يتجاوز اثنى عشر ألف جندى، وكان جيش **لذريق** Rodrigo فى مائة ألف أو يزيد، وليس مهما أن يكونوا كذلك حقا، وإنما المهم أن المحاربين تصوروهم فى هذا العدد، وكان جيش المسلمين مهاجماً، وجيش القوط مدافعا، والمسلمون يقاتلون على أرض يجهلونها، والقوط فى بلدهم يعرفون دقائقها وخفاياها، ومع ذلك انتصر المسلمون وهزم القوط، فعجزت العامة عن تفسير أسباب النصر والهزيمة علمياً، وردها إلى أسبابها السياسية والاجتماعية، فاستعاضوا عن ذلك بالخيال والأساطير.

قالوا فى تفسير مساعدة **يوليان** Julian حاكم **سبتة** الإسبان للمهاجمين المسلمين وحقده على رئيسه الملك القوطى **لذريق**، إن الأمراء الإسبان قبل الفتح الإسلامى درجوا، طبقاً لعادة متبعة، على إرسال أطفالهم إلى قصر الملك فى **طليطلة**، لينشأوا على طاعته، ويتأدبوا بأدبه، ويكونوا فى خدمته، فإذا كبروا أنكح بعضهم بعضا، وحمل مهورهم، وتولى تجهيز إناثهم، استئلافا لآبائهم، وضمانا لولائهم، فاتفق أن **يوليان** أرسل بابنته، وكانت كريمة عنده، أثيرة لديه، فلما كبرت تكشفت عن جمال بارع، وفتنة آسرة، فلما وقعت عليها عين لذريق أعجبته، وهام بها حبا، ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتضها، فاحتالت حتى أعلمت أباها بذلك سرا، بمكاتبة خفية، فأحفظه شأنها، واشتدت حميته، وأقسم ليزيلن ملك لذريق وسلطانه، ثم عبر المضيق فى ديسمبر أصعب أوقات الشتاء، فصار بالأندلس، وبلغ **طليطلة**، ولقى الملك، فأنكر عليه مجيئه فى مثل ذلك الوقت، وسأله عما لديه، وما جاء فيه، ولم جاء فى مثل وقته ؟ فذكر خيراً، واعتل بذكر زوجته، وشدة شوقها إلى رؤية بنتها التى عنده، وتمنيها لقاءها قبل الموت، وألحاحها عليه فى إحضارها، وأنه أحب إسعافها، ورجا بلوغها أمنيتها، وسأل الملك إخراجها إليه، وتعجيل إطلاقه

للمبادرة بها، ففعل ،وقد توثق من الفتاة بالكتمان، وأفضل على أبيها، فانقلب عنه عائدا إلى سبتة. وذكروا أن **لذريق** حين ودع يوليان قال له : إذا قدمت علينا فى المرة التالية فتخير لنا من الصقور التى لم تزل تطرفنا بها، فإنها آثر جوارحنا إلينا، فقال له : أيها الملك، وحق المسيح لئن بقيت لأدخلن عليك صقوراً ما دخل عليك مثلها قط، يعرّض بالذى أضمره من السعى فى إدخال رجال العرب عليه، وهو لايفطن. ولم يكد **يوليان** يعود إلى **سبتة** حتى لقى **موسى بن نصير** حاكم شمال إفريقية من قبل الخليفة الأموى، وكلمه فى غزو الأندلس ووصف له حسنها وفضلها، وما جمعت من أشتات المنافع، وأنواع المرافق، وطيب المزارع، وكثرة الثمار، وثرارة المياه، وهوّن عليه مع ذلك حال رجالها. .

ذلك هو مجمل القصة كما أوردته كتب التاريخ العربية، وبديهى أنها تجنبت الدخول فى التفاصيل العاطفية التى يسرف الخيال الشعبى فى تصويرها، ووجودها فى أكثر من مصدر يوحى بأن شيئا ما من القصة حدث فعلا، لكن الذى لا شك فيه أنها لم تكن السبب وراء غضب **يوليان**، فمثل هذا العمل لم يكن مستكرها إذ ذاك فى أوساط الطبقة العليا، ولم يكن ينظر إليه باشمئزاز على النحو الذى تراه عليه الطبقة الوسطى أو الجانب المحافظ منها، فى عصرنا الحاضر، ولا أظن الطبقة العليا فى أيامنا هذه، أو ما قبلها، ترى فيه إثما كبيراً، أو جرما خطيراً، يستأهل أن تقوض من أجله مملكة، وأن يخون فى سبيله حاكم وطنه. وأيا ما كان الأمر فقد أصبحت القصة، وخاصة فى اللغة الإسبانية فى العصر الوسيط ومطلع الحديث. نبعا فيّاضا يغترف منها القصاص، فصيغت منها وحولها روايات كثيرة شعبية مجهولة المؤلف، أو كتبها أدباء معروفون، ومنذ ذلك التاريخ شهرت **بنت يوليان** باسم La Cava تحريفا للكلمة العربية « القحبة al Cahba ».

وأرجعوا أسباب الانتصار إلى قوى خفية، وعادوا بها إلى زمن سحيق جداً، زعموا : « أن **اليونان** كانوا يسكنون بلاد الشرق قبل عهد الإسكندر فلما ظهرت **الفرس**، واستولت على البلاد، وزاحمت **اليونان** على ما كان بأيديهم من الممالك، انتقل **اليونان** إلى جزيرة الأندلس لكونها طرفا فى آخر العمارة، ولم يكن لها ذكر إذ ذاك، ولا ملكها أحد من الملوك، ولم تك عامرة، وكان أول من عمر فيها واختطها أندلس بن يافث بن نوح، فسُميَّت باسمه، ولما عمرت الأرض بعد الطوفان كانت الصورة المعمورة عندهم على شكل طائر، رأسه المشرق، ورجلاه الجنوب والشمال، وما بينهما بطنه، والمغرب ذنبه، وكانوا يزدرون المغرب لنسبته الى أخس أجزاء الطير. وكانت اليونان لاترى فناء الأمم إلا بالحروب، لما فيها من الإضرار والاشتغال عن العلوم، وكانت عندهم من أهم الأمور، فلذلك انحازوا من بين يدى الفرس إلى الأندلس، فلما صاروا إليها أقبلوا على عمارتها، فشقوا الأنهار، وبنوا المعاقل، وغرسوا الجنان والكروم، وشيدوا الأمصار، وملأوها حرثا ونسلا وبنيانا، فعظمت وطابت، حتى قال قائلهم لما رأى بهجتها : إن الطائر الذى صُوِّرت هذه العمارة على شكله، وكان المغرب ذنبه، لابد أن يكون طاووسا، لأن معظم جمال الطاووس فى ذنبه ».

« اغتبط **اليونان** بالأندلس، واتخذوا من **طليطلة** دار الحكمة وعاصمة الملك، لأنها أواسط البلاد، وكان أول ما يشغلهم تحصينها عمن يتصل به خبرها من الأمم، فنظروا فإذا هو لا يحسدهم على رغد العيش إلا أرباب الشقاء والشظف والتعب، وهم يومئذ طائفتان : العرب والبربر، فخافوهم على جزيرتهم العامرة، فعزموا على أن يتخذوا لهذين الجنسين من الناس طنسما، فرصدوا لذلك أرصادا. ولما كان البربر بالقرب منهم، وليس لهم سوى تعدية البحر، ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع، ازدادو منهم نفوراً، وكانوا أكثر تحذراً من الاتصال بهم نسبا أو مجاورة، حتى ثبت ذلك فى طبائعهم،

وصار بعضه مركبا فى غرائزهم، فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس، وبغضهم لهم، أبغضوهم وحسدوهم، فلم تجد أندلسيا إلا مبغضا بربريا، وبالعكس. إلا أن البربر أحوج إلى أهل الأندلس لوجود بعض الأشياء عندهم، وفقدها ببلاد البربر».

«وكان بنواحى غرب الأندلس ملك يونانى، بجزيرة يقال لها **قادس Cadiz**، وكانت له ابنة غاية فى الجمال، فتسامع بها ملوك الأندلس، وكانت الأندلس كثيرة الملوك، لكل بلدة أو بلدتين ملك، فخطبوها، وخشى أبوها إن زوجها من واحد أسخط الآخرين، فتحير، وأحضر ابنته، وكانت الحكمة مركبة فى طباع القوم ذكورهم وإناثهم، ولذا قيل: الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أقوام من أهل الأرض: فى أدمغة اليونان، وأيدى أهل الصين، وألسنة العرب. فقال لها: يابنية!، إنى أصبحت على حيرة فى أمرك ممن يخطبك من الملوك، وما أرضيت واحدا إلاأسخطت الآخرين فقالت له: اجعل الأمر إلى تخلص، فقال: وما تقترحين؟ فقالت: أن يكون ملكا حكيما، فقال نِعْمَ ما اخترته لنفسك، فكتب فى أجوبة الملوك الخطّاب، أنها اختارت من الأزواج الملك الحكيم، فلما وقفوا على الجواب سكت من لم يكن حكيما. وكان فى الملوك الخاطبين حكيمان، فكتب كل واحد منهما: أنا الملك الحكيم، فلما وقف على كتابيهما بقى الأمر على إشكال، وهذان ملكان حكيمان، أيهما أرضيت أسخطت الآخر. فقالت سأقترح على كل واحد منهما أمراً يأتى به، فأيهما سبق إلى الفراغ مما التمست كنت زوجته، قال: وما الذى تقترحين عليهما؟ قالت إنّا ساكنون بهذه الجزيرة ومحتاجون إلى رحى تدور بها، وإنى مقترحة على أحدهما إدارتها بالماء العذب الجارى إليها من ذلك البر، ومقترحة على الآخر أن يتخذ لى طلسما نحصّن به جزيرة الأندلس من البربر، فاستظرف أبوها ذلك. وكتب إلى الملكين بما قالت ابنته، فأجاباه إلى ذلك، وتقاسماه على ما اختارا، وشرع كل

واحد منهما فى عمل ما أُسْند إليه».

«فأما صاحب الرحى فإنه عمد إلى أشكال اتخذها من الحجارة، نضّد بعضها إلى بعض فى البحر المالح الذى بين جزيرة الأندلس والبر الكبير، فى الموضع المعروف بزقاق سبتة، وسدد الفرج التى بين الحجارة بما اقتضته حكمته، وأوصل تلك الحجارة من البر إلى الجزيرة، وآثاره باقية إلى اليوم فى الزقاق الذى بين سبتة والجزيرة الخضراء، وأكثر أهل الأندلس يزعمون أن هذا أثر قنطرة كان الإسكندر قد عملها ليعبر عليها من سبتة إلى الجزيرة الخضراء، والله أعلم أى القولين أصح، غير أن الشائع إلى الآن عند الناس هو الثانى. فلما تم تنضيد الحجارة للملك الحكيم، جلب الماء العذب من جبل عالٍ فى البر الكبير، وسلطّه من ساقية محكمة، وبنى بجزيرة الأندلس رحى على هذه الساقية».

«وأما صاحب الطلسم فإنه أبطأ عمله بسبب انتظار الرصيد الموافق لعمله، غير أنه عمل أمره، وأحكمه، وابتنى بنيانا مربعا من حجر أبيض على ساحل البحر، فى رمل متراكم، حفر أساسه إلى أن جعله تحت الأرض بمقدار ارتفاعه فوق الأرض ليثبت، فلما انتهى البناء المربع إلى حيث اختار صّور من النحاس الأحمر والحديد المصفى، المخلوطين بأحكم الخلط، صورة رجل بربرى وله لحية، وفى رأسه ذؤابة من شعر جَعْد قائمة فى رأسه لجعودتها، وهو متأبط بصورة كساء قد جمع طرفيه على يده اليسرى بألطف تصوير وأحكمه، فى رجله نعل، وهو قائم من رأس البناء على مستهدف بمقدار رجليه فقط، وهو شاهق فى الهواء، طوله نيّف عن ستين أو سبعين ذراعا، وهو محدودب الأعلى، إلى أن ينتهى ما سعته قدر ذراع، وقد مدّ يده اليمنى بمفتاح قفل قابض مشيراً إلى البحر كأنه يقول: لا عبور! وكان من تأثير هذا الطلسم فى البحر الذى تجاهه، أنه

لم يُر قط ساكنا، ولا كانت تجرى فيه قط سفينة بربر إلا سقط المفتاح من يده».

«وكان الملكان اللذان عملا الرحى والطلسم يتسابقان إلى فراغ العمل إذ بالسبق يُستحق زواج المرأة، وكان صاحب الرحى فرغ أولا: لكنه أخفى أمره عن صاحب الطلسم لئلا يترك عمله فيبطل الطلسم، وبذلك تحظى المرأة بالأمرين: الرحى والطلسم. فلما علم باليوم الذى يفرغ صاحب الطلسم فى آخره، أجرى الماء فى الجزيرة من أوله، وأدار الرحى، واشتهر ذلك، فاتصل الخبر بصاحب الطلسم وهو فى أعلى القبة يصقل وجهه، وكان الطلسم مذهبا، فلما تحقق أنه مسبوق ضعفت نفسه فسقط من أعلى البناء ميتا، وحصل صاحب الرحى على المرأة والرحى والطلسم».

«وكان من تقدم من ملوك اليونان يخشى على الأندلس من البربر، فاتفق وجعلوا الطلسمات فى أوقات اختاروا أرصادها، وأودعوا تلك الطلسمات تابوتا من الرخام، وتركوه فى بيت بطليطلة، وركّبوا على ذلك الباب قفلا، تأكيداً لحفظ ذلك البيت، فاستمر أمرهم على ذلك».

«ولما حان وقت انقراض دولة من كان بالأندلس ودخول العرب والبربر إليها، وذلك بعد مضى ستة وعشرين ملكا من ملوكهم من تاريخ عمل الطلسمات بطليطلة، وكان لذريق هو تمام السابع والعشرين من ملوكهم، فلما اقتعد أريكة الملك، قال لوزرائه وخواص دولته وأهل الرأى منهم: قد وقع فى نفسى من أمر هذا البيت الذى عليه ستة وعشرين قفلا شىء، وأريد أن أفتحه لأنظر ما فيه، لأنه لم يعمل عبثا، فقالوا: أيها الملك؛ صدقت، إنه لم يصنع عبثا؛ ولم يقفل سدى؛ والرأى والمصلحة أن تلقى أنت أيضا عليه قفلا؛ أسوة بمن تقدمك من الملوك، وآباؤك وأجدادك لم يهملوا هذا فلا تهمله؛ وسر

سيرهم؛ فقال لهم : إن نفسى تنازعنى إلى فتحه؛ ولا بد لى منه. فقالوا له : إن كنت تظن أن فيه مالا فقدره ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره، ولاتحدث علينا بفتحه حادثا لا نعرف عاقبته؛ فأصر على ذلك؛ وكان رجلا مهيبا فلم يقدروا على مراجعته وأمر بفتح الأقفال، وكان على كل قفل مفتاحه معلقا؛ فلما فتح الباب لم ير فى البيت شيئا إلا مائدة عظيمة من ذهب وفضة مكللة بالجواهر؛ وعليها مكتوب : هذه مائدة سليمان بن داود. ورأى فى البيت ذلك التابوت وعليه قفل، ومفتاحه معلق، فلم يجد فيه سوى رق؛ وفى جوانب التابوت صور فرسان مصورة بأصباغ محكمة التصوير؛ على أشكال العرب : معممون على ذوائب جعد، وعليهم الغراء، ومن تحتهم الخيل العربية، وهم متقلدون السيوف المحلاة، معتقلون الرماح، فأمر بنشر ذلك الرق، فإذا فيه متى فتح هذا البيت وهذا التابوت المقفلان بالحكمة دخل القوم الذين صورهم فى التابوت إلى جزيرة الأندلس، وذهب ملك من فيها من أيديهم، وبطلت حكمتهم. فلما سمع لذريق ما فى الرق ندم على ما فعل، وتحقق انقراض دولتهم، ولم يلبث إلا قليلا حتى سمع أن جيشاً وصل من المشرق جهزه ملك العرب ليفتح بلاد الأندلس».

نحن، إذن، بإزاء أساطير فيها شىء من تاريخ، وتحاول أن تفسر التاريخ، وتلتقى فيها عناصر هندية وإسلامية ويونانية ومسيحية، وفيما يبدو كانت رواياتها شفوية، وعناصرها وأحداثها أطول مما بين أيدينا بكثير، وأن المؤرخين وكانوا يحتقرون القصص الشعبى ولا يرتقون به إلى مرتبة التاريخ الصحيح أغفلوا جانباً كبيراً منها، فليس ثمة ترابط بين أجزائها المختلفة، ويشعر القارئ لها أن كاتبها نافد الصبر، يتعجل إنهاءها، ويقفز بين الأحداث قفزا ليصل إلى النهاية.

ولم تكن أحداث الفتح الإسلامى لشبه الجزيرة الإيبرية وحدها مناط

القصص نثرا كان أو شعرا، وإنما الأمجاد التى صنعوها وهم فى طريقهم من المشرق مارين بمصر وشمال أفريقية، أو ما حققوه من بطولات فى العراق وإيران، أو ما توارثوه من بطولات هى جزء من تاريخ قبائلهم فى عصر ما قبل الإسلام.

خمسة وأربعون عاما مضت على الفتح الإسلامى، فلما جاء عبد الرحمن الداخل (٧٥٦-٧٨٨م) مؤسس الدولة الأموية، أدى استقرار الحياة فى عهده، وعلى أيام خلفائه من بعده، إلى ارتفاع مستوى الحياة المادية عند كثيرين، وجرى المال وفيرا بين أيدى الناس، فأخذوا بأسباب الرقى ومالوا إلى بناء القصور، وغرس الحدائق، والترفّه فى الرياش، وتجميل المساكن، والإقبال على الزهور، وإقامة التماثيل، واتخاذ النوافير، والميل إلى الطرب والشراب، ومع النغم والنشوة تكون الموسيقا، ومع الموسيقا يكون الغناء والرقص، وهكذا تحولت القصور إلى لون من المسارح تتنفس فيها كل الفنون.

ولم تقتصر هذه المباهج على الطبقة الأرستقراطية أو الوسطى، فكان لعامة الناس مباهجهم ومباذلهم وهم شعرهم أيضا، يقال فى عامية ترضى رغائب كل القاطنين فى الأندلس، عامية خاصة بالأندلس وإليه تنسب فهى خليط من العربية ومن الرومانثية romance على السواء. ولقد ضاع أغلب ذلك، ولكن ديوان **ابن قزمان**، المتوفى ١١٦٠م، وكتب فى العامية كله، وصلنا كاملا. ومن الواضح أن احتفاء الناس بتقييد الشعر الوجدانى كان أشد من حرصهم على تقييد الشعر الملحمى الشعبى، أو ما هو بسبيله، ربما لأن الثانى، كما هو عليه الحال فى أيامنا هذه، يرتبط على نحو وثيق بمستوى السامع وذوقه، واتجاهه العنصرى وعمره، وكان على الشاعر الجوال أن يرعى ذلك، ومن ثم فهو يدخل دائما على روايته من التحوير والتبديل، دون أن يتجاوز الخطوط الرئيسية للموضوع، ما يجعلها قادرة على تلبية رغائب أى طائفة من المستمعين، وهو

أمر لا يتأتى مع التدوين، والتزام النص المسجل.

كان المجتمع الإسلامى الأندلسى فى القرن الأول من نشأته، يتكون أساسا من الوافدين على شبه الجزيرة من العرب، عدنانيين وقحطانيين، أو بالتعبير الحديث من عرب الشمال وعرب الجنوب، ومن بربر وأفارقة، ومن الذين أسلموا من سكان الجزيرة الأصليين، ومن قلة منهم أطلق عليها اسم المستعربين los Mozarabes، حافظوا على كاثوليكيتهم، وتمتعوا بحرية دينية واسعة، فكانت لهم كنائسهم وطقوسهم، وحافظوا على لغتهم الرومانثية، ولكنهم إلى جانبها اتخذوا العربية لغة وبرعوا فيها، وكان منهم من يقول فيها الشعر، أو ينثر بها أدبا على نحو رفيع. ومن ثم كان الأندلس يضطرب بألوان **من العنف القبلى، ظاهرة أو خفية، كل جماعة تتعصب لتاريخها وقبيلها، وأكاد** أتصور أن مادة السمر لعرب الجنوب كانت تدور حول **سيف بن ذى يزن** ونضاله ضد الأحباش من أجل حرية قومه، على حين كان عرب الشمال بدورهم يتحدثون عن بطولاتهم فى صراعهم ضد الفرس اونة، ثم مابعد **الإسلام ضد المشركين آونة أخرى، وعن أمجادهم الإسلامية أخيرا، ففيهم** ظهر **الرسول**، وهم الذين حملوا دينه إلى شتى بقاع العالم. وأكيدا كان للبربر الكثير من أمجادهم التاريخية، وحروبهم ضد الإسلام أو معه أو قبله، يرددونها ليواجهوا بها موجة التفاخر عند الآخرين. ولعل عدداً غير قليل من الأفارقة السودانيين كانوا أقرب إلى قصة **عنترة**، الشاعر العربى الأفريق الأسود، وقد حررته بطولته وشجاعته فى قصة طويلة تحفظ كتب الأدب العربى الجانب التاريخى منها، وتحتفظ بها ذواكر الناس أسطورة جميلة، يختلط فيها الحب بالحرب، والغرام بالإقدام، وكان المسلمون الجدد من الإسبان يبحثون عن تاريخهم القديم يحاولون أن يلتقطوا من أعماقه أثرا يستندون إليه، فإذا عز عليهم الأمر، استعاضوا عنه بثوراتهم الحادة فى البدء، ثم كان لهم من بعد

عمرو بن حفصون (٨٨٠-٩١٧م)، أو حتى **السيد** نفسه أحيانا، فلم يكن السيد بطلا مسيحيا خالصا كما سنرى بعد حين. أما المسلمون الصالحون، فقد وجدوا فى تاريخ الصحابة وبطولاتهم وقصص الزاهدين وكراماتهم، زادا يغنيهم عن كل ما سبق من قصص جاهلى، أو وثنى، أو قبلى، أو لا يتفق ومناهج الإسلام فى الحياة.

كانت أيام العرب فى جاهليتهم مصدرا ثرا لسمر حى، بما تضم من بطولات فى الحرب، ولسن فى القول، وإفحام فى الخصومة، فراجت بين الأندلسيين وشاع خبرها، وليس من باب الصدفة وحدها أن كتاب **الأغانى** لمؤلفه **أبى الفرج الأصفهانى**، المتوفى عام ٩٦٧ ميلادية، وهو أوفى مصدر فى هذه المادة، قصصا وتاريخا وشعرا، عرف فى **الأندلس** قبل أن يعرف فى **العراق**، رغم أن مؤلفه من المشرق، فقد حرص **الحكم الثانى** ٩٦١-٩٧٦م، على أن يحصل على أول نسخة منه، مقابل إعطاء المؤلف ألف دينار من الذهب الخالص. وأن المصدر التالى له فى سعة المادة، وإن فاقه فى التنظيم والتبويب وسبقه فى التأليف، هو لأندلسى أصيل لم يبرح الأندلس طوال حياته، وأعنى به كتاب **العقد الفريد لابن عبد ربه**، المتوفى عام ٩٤٠م، ففيه فصول طوال عن أيام العرب وحروبهم وبطولاتهم، هى جماع ما قرأ المؤلف أو درس أو سمع فى وطنه. ويقص علينا **ابن بسام** المتوفى عام ١١٤٧م وكان معاصراً للسيد، فى كتابه الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة أن **روى دياث دى بيبار الملقب بالسيد** : «كانت تدرس بين يديه الكتب، وتقرأ عليه سير العرب، فإذا انتهى إلى أخبار **المهلب بن أبى صفرة** استخفه الطرب، وطفق يعجب منها ويعجب».

فإذا تجاوزنا قصص أيام العرب، يغلب على ظننا أن **قصة الهلالية** كانت أكثر الحكايات الشعبية رواجا بين الأندلسيين فى القرنين الحادى عشر

والثانى عشر الميلاديين، لأنها تمثل التمرد على السلطة أولا، وتعكس الصراع بين العرب والبربر قويا ثانيًا، وفيها من الأحداث والشخصيات ما يجعلها قريبة من أذواق الناس جميعا، وكان مسرح أحداثها المنطقة الشاسعة التى تبدأ من جزيرة العرب وتنتهى بمراكش. وكان الأندلس فى هذين القرنين، الحادى عشر والثانى عشر، وما قبلهما، مهيأ تماما لأن يعطى للقصة سمعه وقلبه، وأن يهبها مشاعره واهتمامه، فقد بلغ التنافس بين العرب والبربر والصقالبة والمسلمين الجدد وطوائف أخرى أشده، وكان الناس ضائقين كأعنف ما يكون الضيق باستبداد **المنصور بن أبى عامر** المتوفى ١٠٠١م، وضائقون من بعده على نحو أشد بملوك الطوائف، لتخاذلهم واضطراب الأمر على أيديهم، وعجزهم عن مواجهة الخطر المسيحى المتزايد فى شمال الجزيرة، وخلال هذا الضيق تطلعوا لنصرة المغرب لهم، واهتموا بما يجرى من أحداث فى هذا الجانب من بلاد المسلمين. وقبل ذلك كان لهم مع الدولة الفاطمية صراع، وكانت هذه إبان نشأتها فى المغرب ترنو ببصرها إلى الأندلس، وكان حكام الأندلس أنفسهم يتخوفون من الفاطميين، وكان الخليفة الشيعى الذى بدأ دعوته فى إفريقية، وأقام واحدة من أزهى الدول الإسلامية فى العصر الوسيط فى **القاهرة**، مثار إعجاب العامة ومحط أنظارهم، سواء كانوا أصدقاء له راضين عنه أو أعداء له ساخطين عليه. وكانت الدولة الفاطمية تمثل كلا العنصرين الإسلاميين اللذين وفدا على الأندلس من خارجه، فقد كان منشئها عربيا قرشيا، أو هكذا زعم لنفسه، ولكنها نهضت أول ما قامت على أكتاف قبيلتين بربريتين، **هما كتامة وصنهاجة**. بل إن الرواية الشعبية حين انتصرت بالهلالية على أمراء شمال إفريقية، فتقاسموا البلاد فيما بينهم، جعلت الأندلس من نصيب البطل **أبى زيد الهلالى** وأنها آلت لأولاده من بعده وعاشوا فيها.

وعندما أقول : إن شبه الجزيرة الإيبيرية كان يموج بألوان من حكايات

البطولة، تغذى حماسة كل قبيل، لا أعنى لونا قصصيا محدداً، تتوافر فيه أنماط فنية معينة، فمثل هذا الأدب لا تبدعه الشعوب على نحو جماعى، وإنما أعنى حديثا يمجد البطولة، ويدور عن الحرب، يعتمد أساسا على التاريخ، ولكن لحمته وسداه من الخيال والتلفيق. ويمكن القول أن شطراً لا يمكن تحديده من سيرة بنى هلال لم يكن معروفا فى الأندلس فحسب، وإنما كان ذا تأثير مباشر أو غير مباشر، فى نشأة الشعر الملحمى الإسبانى. ولقد كانت **سيرة بنى هلال** فى البدء، مقطوعات طويلة من الأشعار الشعبية التى تغنى، تعرض لأحداث متعددة، ولم تكن قد دونت بعد، ولم يكن فى وسع أى شاعر جوال أن يحفظها كلها، فيقتصر منها على مقطوعات تتصل بالأحداث القريبة إلى وجدانه وذوقه، أو إذا شئنا الدقة وجدان وذوق الذين يغنّى لهم ولكى تنتشر على نحو واسع بين المسلمين والمسيحين لم تكن فى حاجة إلى ترجمة، شأنها شأن الأزجال العربية، فقد كانت تقال، وحتى تكتب، فى لغة مفهومة عند عامة الأندلسيين، يتحدثون العربية أو يتخذون الرومانثية لسانا.

كيف تمت عملية الانتقال الثقافى ؟.

من الثابت أن **قرطبة** فى القرن العاشر الميلادى بلغت مستوى عالياً من الحضارة، وتحولت إلى مركز ثقافى هام ينافس **بغداد والقاهرة**، ولكنها لم تكن وحدها فى هذا المجال، وإنما شاركتها على امتداد الأندلس مدن أخرى كثيرة، كبيرة مثل طليطلة وإشبيلية وغرناطة وسرقسطة وبلنسية، أو صغيرة مثل شلب وبطليوس وجيان ومرسية. وبقيت هذه المدن تضىء بنور مستعار من الثقافة الإسلامية لمدة طويلة بعد سقوطها فى أيدى المسيحيين. ولم يكن النشاط الفكرى والروحى فى هذا الجانب من أوروبا يعرف فى تلك الحقبة الخصبة التى امتدت حتى القرن الثالث عشر أية حدود دينية، وإنما تغشى ضياؤه الناس جميعا، وامتد عبر الجزيرة كلها. فلم تكن فى الأندلس حدود بين الجانب الذى

يعيش فيه المسلمون، والآخر الذى يعيش فيه المسيحيون، بالمعنى الذى نفهمه اليوم، وإنما قامت بينهما سهول شاسعة، واعتاد المسلمون والمسيحيون أن يتلاقوا فيها، ويخالط بعضهم بعضا. ولم تكن هناك حواجز من الكراهية والبغضاء بين الأجناس والأديان المختلفة على نحو ما نتصوره فى وقتنا الحاضر، والأفكار التى تصور أن العداء فى الأندلس كان مستحكما بين كل المسلمين وبين كل المسيحيين، فى كل الأوقات، هى أفكار خاطئة، تعود إلى روايات ملفقة، صنعها المتعصبون فيما بعد زوال دولة الإسلام.

وإلى جانب تلاقى العامة، وهجراتهم وتحركاتهم، كان التزاور بين أمراء المسيحيين فى الشمال، وعلية المسلمين فى الجنوب شائعاً، وعادة كان يصحب كل منهم شعراءه ومنشديه عند القيام بزياراته، وأحيانا كان يجمع بينهم التحالف أو الصداقة، ومنذ بداية القرن الحادى عشر نلمس ظاهرة فريدة، هى تحالف أمير مسلم مع أمير مسيحى، لمحاربة آخر مسلم أو مسيحى، ووجود جنود مختلطين من مسلمين ومسيحيين، فى جيوش الشمال المسيحيين أو أمراء الجنوب المسلمين، وظهور قواد لا يدينون بالولاء لأحد، وإنما يقاتلون بجيش مكون من عناصر مختلطة، مع من يدفع لهم أجراً أكبر، أو ضد من يلتمسون فيه ضعفا، أو طلبا للغنائم، أو حبًّا فى المغامرة.

لعب المغنون والشعراء الجوالون، محترفين أو هواة، الدور الأول فى إشاعة الغناء العربى والموسيقا العربية والقصص العربى منظوما. فعندما أخذ سلطان المسلمين فى الانحسار، وبدأت كبريات الحواضر الإسلامية تسقط فى يد المسيحيين واحدة وراء أخرى، كانوا يستولون على القصور بمن فيها من شعراء عرب يقعون أسرى، ثم يعيشون فى كنف الأمراء الجدد، ولم يكن المغنون فى الجانب المسيحى يحجمون عن الذهاب إلى كبريات المدن الإسلامية فى الجنوب بحثا عن الآلات العزف العربية التى ينشدون شعرهم على وقع أنغامها. كما كان

سادتهم الأمراء يذهبون إليها بحثا عن مظاهر الأناقة والأبهة أو العلاج. ولم تخل قصور الأمراء المسيحيين من الشعراء العرب، وأى رجل ميسور الحال كان إذا أقام حفلا دعا إليه أولئك الشعراء، وكان بلاط الملك **شانجه الخامس**، كنت **قشتالة** فى عام ١٢٩٣م، يضم ستة وعشرين شاعراً مسلماً بينهم إمرأتان، واثنى عشر شاعراً مسيحيًا، وشاعراً يهوديًا واحداً. وفى القرن الخامس عشر وُجد فى محاضر مجلس بلدية **الترويل** بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٤٤٣م، طلب من الأعضاء بدفع عشر قطع نقدية للمدعو **محمد جاجو** Mahoma Chacho من أهل مدينة **البونت**، وهو مسلم كما يبدو من اسمه، لأنه قام بالعزف على الآلة الموسيقية Cazamora فى احتفالات البلدية. وشكا مجمع القساوسة الذى اجتمع فى **بلد الوليد** فى هذا الوقت، من أن المسيحيين يجلبون المسلمين واليهود إلى الكنائس ليغنّوا فيها ويعزفون. وقد شُهرت مدينة **شاطبة** بنوع خاص، بأنها موطن هؤلاء المسلمين الذين يجدون الغناء والإنشاد والعزف، ويدعون إليه، أو يذهبون طلباً للرزق، عبر مقاطعتى **قشتالة** Castilla **ونبرة** Navarra. ولدينا رواية ترجع إلى نفس الفترة عن شاب مغن فقير اسمه Diego Arias de Avila كان يبيع التوابل فى مدينة **شقوبية** ثم « يجمع حوله المغنين العرب، وجماعات القرويين، وأنه كان شغوفا بهذا العمل ».

ولم يكن دور المرأة الأسيرة بأقل أهمية فى نشر هذا اللون من الثقافة، فقد كن ذوات ثقافة عالية، ومعرفة واسعة بالموسيقا والغناء والأدب والتاريخ، ولم يكن مجرد مصادفة بحتة أن المرأة البروفانسية كانت أول امرأة أوربية اشتغلت بالأدب، فقد كانت مقاطعة بروفانس تعرف ابتداء من القرن الثانى عشر أفواجا من هؤلاء الأسيرات المسلمات المتأدبات المثقفات، أما الجانب المسيحى من الأندلس فقد عرفهن قبل ذلك بكثير. يقص علينا ابن عبد ربه القرطبى **ابن الكتانى** أنه حضر حفلا فى مدينة برغش Burgos أقيم فى قصر **شانجه غرسية**

كنت **قشتالة** (٩٩٥-١٠١٧م)، وقد تميز الحفل بعدد من المغنيات والراقصات، أهداهن إليه **خليفة قرطبة**، فأمرت زوج شانجه واحدة منهن بالغناء، فغنت بالعربية، وكان صوتها جميلا، وفجأة انفجرت إحدى الجوارى باكية، فاقترب منها **ابن الكتانى** وسألها عن السبب، فقالت له : هذه الأشعار التى تغنى بها هى **لأبى سليمان بن مهران السرقسطى**، إننى أسيرة هنا، ولا أعرف من أخبار أسرتى شيئاً، ولم تذكر الرواية هذه الأشعار، ولكننى تأملت الأشعار القليلة التى أوردها **ابن بسام** فى كتابه « الذخيرة »، عند ترجمته لسليمان هذا ، فوجدت أن الأبيات التالية أشدها رقة وإثارة وحنينا وأرجح أنها هى التى كانت تغنى :

خليلىَّ ما للريح تأتى كأنما ... يخالطها عند الهبوبِ خلوقُ
أم الريحُ جاءتْ من بلاد أحبتى ... فأحسبها عَرْفَ الحبيبِ تسوقُ
سقى الله أرضاً حلهَّا الأغيد الذى ... له بين أحناءِ الضلوع حريقُ
أصارَ فؤادى فرقتين فعنده ... فريقٌ، وعندى للسياقِ فريقُ

كان عدد هؤلاء الأسيرات كثيراً، ودورهن كسفيرات لنقل الثقافة كبيراً، أكبر مما نتصور، على امتداد الأندلس كله، أو حتى فيما وراء حدوده فى مقاطعة بروفانس وغيرها، ولنتصور هذا الدور يمكن أن نقف عند أسرى معركة واحدة، هى معركة **بربشتر** التى وقعت عام ١٠٦٤م، وكانت الغلبة فيها للمسيحيين، فقد أسروا بعد النصر من بنات الطبقة العالية والمتوسطة ما يقدره المؤرخون العرب بمائة ألف من النساء والأطفال، لأن الرجال قتلوا فى المعركة، وهو رقم يحمل طابع المبالغة، ولكنه يشير على أى حال إلى أن العدد كان كثيراً، وقد نقل علية القوم هؤلاء الأسيرات إلى دورهم وقصورهم، وكان احتفاؤهم بهن كبيراً، يروى المؤرخ ابن حيان :

« أن بعض تجار اليهود جاء بربشتر بعد الحادثة ملتمساً فدية بنات بعض الوجوه ممن نجا من أهلها، حصلن فى سهم قومس كان يعرفه، قال : فُهديتُ إلى منزله فيها، واستأذنت عليه، فوجدته جالساً مكان رب الدار، مستوياً على فراشه، رافلا فى نفيس ثيابه، والمجلس والسرير كما خلّفها ربها يوم محنته، لم يغير من رياشها وزينتها، ووصائفه مضمومات الشعور، قائمات على رأسه، ساعيات فى خدمته، فرحب بى، وسألنى عن قصدى فعرفّتهُ وجهه، وأشرت إلى وفور ما أبذله فى بعض اللواتى على رأسه، وفيهن كانت حاجتى، فتبسم وقال بلسانه، ما أسرع ما طمعت فيمن عرضناه لك ؟، أعْرِضْ عمن هنا وتعرّض لمن شئت ممن صيرته حصتّى من سبى وأسراى، أقُارِبْكَ فيمن شئت منهن. فقلت له : أما الدخول إلى الحصن فلا رأى لى فيه، وبقربك أنست ، وفى كنفك اطمأننت، فسُمْنى ببعض من هنا فإنى أصير إلى رغبتك، فقال : وما عندك ؟ قلت : العين الكثير الطيِّب، والبز الرفيع الغريب. فقال : كأنك تُشهيّنى ما ليس عندى، يا « باجة »، ينادى بعض أولئك الوصائف ، يريد « يا بهجة » فغيّره بعجمته : قومى فاعرضى عليه ما فى ذلك الصندوق، فقامت إليه وأقبلت ببدر الدنانير، وأكياس الدراهم، وأسفاط الحلى، فكُشف وجُعل بين يدى العلج حتى كادت توارى شخصه، ثم قال لها : أدنى إلينا من تلك التخوت، فأدنت منه عدة من قطع الوشى والخز والديباج الفاخر، مما حار له ناظرى وبُهتَ، واسترذلت ما عندى، ثم قال : لقد كثر هذا عندى حتى ما ألذ به، ثم حلف بالإهه أنه لو لم يكن عنده شيء من هذا ، ثم بُذل بأجمعه فى ثمن تلك ما سَخَتْ بها يدى، فهى ابنة صاحب المنزل، وله حسب فى قومه، اصطفيتها لولادتى لمزيد جمالها، حسبما كان قومها يصنعون بنسائنا نحن أيام دولتهم، وقد رد لنا الكرة عليهم، فصرنا فيما تراه وأزيدك بأن تلك الخودة الناعمة، وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية أخرى، مغنيةُ والدها التى

كانت تشدو له على نشواته، إلى أن أيقظناه من نوماته، يا فلانة - يناديها بلكنته - خذى عودك فغنّى زائرنا بشجوك. قال: فأخذت العود، وقعدت تمويّه، وإن لأتأمل دمعها يقطر على خدها، فتسارق العلج مسحه، واندفعت تغنى بشعر ما فهمته أنا ، فضلا عن العلج، فكان من الغريب أن حث شربه هو عليه ، وأظهر الطرب منه، فلما يئست مما عنده قمت منطلقاً عنه، وارتدت لتجارتى سواه، واطلعت لكثرة ما لدى القوم من السبى والمغنم على ما طال عجبى به »

فالمرأة أسيرة فى البدء، ثم زوجة أو وصيفة أو عشيقة فى النهاية، تلعب دوراً قوى التأثير على الرجل الذى اصطفاها، ولما كانت المرأة الأندلسية المسلمة عادة أرق من الرجل المسيحى الذى آل إليه أمرها، فهى تطبعه بطابعها، يحب ما تحب، ويكره ما تكره ،وأخيراً يتعلم منها لغتها العربية، فصيحة أو عامية، وما يتصل منها بالجانب العاطفى والعائلى على نحو أخص، وتأخذه بتقاليد مجتمعها وبيئتها، ومع هؤلاء أو بعدهن، كان يجىء الشعراء الجوّالون، ينشدون القصص العربى ، واقتداء بهم، وتقليداً لهم، بدأ الجانب المسيحى، بالدقة فى مكان ما على الحدود بين المسلمين والمسيحيين، يتهيأ لتكون له قصة على نمط قصة الهلالية وسيرتهم، تنشد وتروى، ويستمع لها الناس معجبين مبهورين.

كان الشاعر الجوّال، فى المدلول الواسع للكلمة، على نحو ما سنرى صاحب دور كبير فى إشاعة الثقافة على امتداد الأندلس كله، بجانبيه الإسلامى والمسيحى، ورغم ذلك فإننا نجهل طبيعته وفنه، ومن ثم آثرت أن أخصه بحديث خاص.